المبحث الأول

المُحسِّنات البديعية المعنوية

❑ المحسنات البديعية المعنوية:

كثيرة، وليس من غرضنا هنا التوسع في دراستها على حد الإلمام بها جميعها، وإنما الغرض هو التركيز على ما اشتهر أمره، وله علاقة بموضوع سياق نسقها وجمالها التعبيري في النص الحكيم.

❑ المطابقة:

ويقال لها أيضاً: التطبيق، والطباق، والتضاد.

والمطابقة لغةً: هي الجمع بين الشيئين، وهو الجمع بين معنيين متقابلين، واشتقاقه من المطابقة، أي: المساواة بين شيئين، والله تعالى سمّى السماوات بالطباق؛ لأنّ كلّ واحدة على طبق الأخرى.

وفي **الاصطلاح**: هو الجمع بين معنيين متقابلين، كقول الله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف، آية: ١٨] والتيقظ هو خلاف النوم. والرقاد: ضد التيقظ هو خلاف النوم. والرقاد: ضد التيقظ، فقابل بين المعنيين.

فالجملة الأولى: تحسبهم أيقاظاً. والجملة الثانية: وهم رقود.

فمقابلة الضد بضده في مثل هذا النوع تسمى بالمطابقة، طباق.

وجه المناسبة بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي:

إذا كان المعنى اللغوي للطباق هو الموافقة، والمعنى الاصطلاحي له الجمع بين الضدين في كلام فهل هناك وجه مناسبة بين المعنيين؟.. يرى بعض البلاغيين أنّه لا مناسبة بين المعنيين، ويرى آخرون –وهو الأرجح– أنّ هناك مناسبة تجمع بينهما.

ومغزى الجمع بين الأمور المتضادة ما من ريب أنّه يكسو الكلام جمالاً ويزيده بهاءً ورونقاً، فالضد -كما قالوا- يظهر حُسنه الضد، فلابد من أن يكون هناك نسقاً وترتيباً من خلال هذا التضاد وإلا كان هذا الكلام عبثاً وضرباً من الهذيان.

قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران، آية: ٢٦-٢٧] نجده قد جمع بين أفعال مضادة هي في غاية النسق والترتيب (تؤتي- وتنزع) و(تعز- وتذل) وبين السماء مضادة هي غاية في النسق والترتيب (الليل- النهار) و(الحي- الميت) وهذا الجمع يبرز قدرة الخالق وهيمنته وسلطانه القاهر، فهو الذي يستطيع إذلال من يشاء، وإعزاز من يشاء، متى أراد وكيف شاء دون اعتبار لمقاييس البشر(١).

ثمّ نلاحظ التدرج في القدرة والغلبة والقهر والهيمنة، فقد جاءت الآية الثانية بأمور متضادة، ينفرد بها المهيمن عز وجل، وهي إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل، وإخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي، فمن ذا الذي يدعي قدرة على ذلك ؟ إنها أمور ينفرد بها القادر ﷻ. ويتضح لنا ذلك أنّ الطباق ليس قاصراً على الزينة والزخرف وليس الهدف منه مجرد التذوق الشكلي، بل يتجاوز ذلك إلى أهدافاً أسمى وغايات لا تتناهى... هذا

(١) ينظر: علم البديع: ١١٤.

النسق الذي ذكرت فيه الآيات حددت السياق الذي جاءت به تلك الألفاظ في استعمال مهيب ومركز للفظة ودقة متناهية في العبارة من خلال معانيها وأصواتها مع تضادها أضفت عنصراً جمالياً ودقة عالية في روعة النسق وجمال الترتيب وحسن الأداء وهذا من كمال إعجاز كتاب الله ﷻ وصور الطباق تأتي في الكلام على أربعة صور وهي:

١- **أن يكون بين اسمين**[1]، كما في قوله تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف، آية: ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ﴾ [فاطر، آية: ١٩-٢٢]. فهذا التناسق العجيب بين الأسماء لهذا الطباق جعل ترتيب العبارة رغم تضادها ولكنها منسجمة أداءً وصوتاً فهذه الأسماء أيقاظاً تساوي رقوداً في ضدها ومعناها ولكن مرتبة متناسقة في صوتها ومعناها وحروفها ودلالاتها وسياقاتها على الرغم من الاختلاف الجذري في المعاني وكذا الأول والآخر والظاهر والباطن والظل والحرور والأحياء والأموات هذه الأسماء المتضادة متناسقة المباني مختلفة المعاني مرتبة عبارة وصوتاً وهذا من كمال إعجاز كتاب الله.

٢- **أن يكون بين فعلين**، كما في قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴾ [النجم، آية: ٤٣-٤٤] وكقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن

(١) ينظر: علم البديع: ١١٤؛ والبلاغة الميسرة: ٦١٦؛ وبحوث منهجية في علوم البلاغة: ٣٤٨.

﴿تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ﴾ [آل عمران، الآية: ٢٦] فالطباق في هذه الآيات وقع بين فعلين (أضحك وأبكى) و(أمات وأحيى) و(توتي وتترع) و(تُعِزُّ وتُذلُّ) وهذا الطباق بين هذه الأفعال جاءت متناسقة ومرتبة من حيث الدلالات والسياقات والناظر إلى تضاد معانيها، ولكن تطابق جمال أدائها وترتيبها، وهذا من بلاغة نظم القرآن الفريد.

٣- **أن يكون بين حرفين**، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة، آية: ٢٢٨] وقول الله ﷻ في موضع آخر: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾ [البقرة، آية: ٢٨٦] وكقوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ، آية: ٢٤] فالطباق في هذه الشواهد بين (على) و(اللام) في آية سورة البقرة وبين (على) و(في) في آية سبأ، لأنّ في (على) معنى المضرة وفي اللام معنى المنفعة وكذا في (في) معنى الاشتغال وفي (على) معنى الارتفاع، ومعلوم أنّ الحروف لا يظهر بها معنى إلاّ مع غيرها فللحروف معانٍ متعددة قد تضاد وقد تتداخل وقد تلتقي والمرجع في ذلك هو الاستعمال، لأنّ الحروف لا تستقل بنفسها ولا تظهر معانيها إلاّ بالاستعمال[1].

وهكذا نجد إنّ هذه الحروف قد طابقت معانيها وسياق مجيئها أكسبها هيبة ودلالة ومعانٍ جديدة، وهذه المعاني الجديدة والفريدة التي تشكّلت من خلال سياق نسقها وجمال معانيها وروعة أدائها، هي مظهر من مظاهر بلاغة وإعجاز كتاب الله ﷻ.

---

(١) ينظر: علم البديع: ١١٦؛ وينظر: بحوث منهجية: ٣٤٧.

٤- **أن يكون بين اسم وفعل،** كما في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام، آية: ١٢٢] وقوله ﷻ: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة، آية: ٢٦٠]. فالطباق في هذه الشواهد بين (ميتاً وأحييناهُ) و(تحيي الموتى). وهذا الطباق كما يكون بألفاظ استعملت في معانيها الحقيقية، يكون كذلك بألفاظ استعملت في معانٍ مجازية، وعندئذٍ يكون الطباق في كلا المعنيين، الحقيقي غير المراد.. والمجازي المراد (أو من كان ميتاً فأحييناه) أي: ضالاً فهديناه، فالمعنيان الحقيقيان وهما (الموت والحياة) متضادان والمعنيان المجازيان وهما الضلال والهدى، متضادان أيضاً.

❑ المقابلة:

وقد اختلف البلاغيون في المقابلة فبعضهم جعلها فنّاً مستقلاً وبعضهم جعلها من الطباق؛ لأنّها عبارة عن طباق متعدد، فالطباق إذا جاوز ضدين صار مقابلة، وهذا هو الراجح.

فالمقابلة: أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو بمعانٍ متوافقة ثمّ بما يقابلها على الترتيب.. والمراد بالتوافق خلاف التقابل فلا يشترط فيها التناسب كما في -مراعاة النظير- بل المراد ألاّ تكون تلك المعاني متضادة، وهذا هو المقصود بالتوافق.

وتبدأ المقابلة بطباقين أو بطباق وملحق ثمّ تتصاعد إلى أنّ تبلغ إلى مقابلة ستة معانٍ بستة معانٍ أخرى، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [التوبة، آية: ٨٢] فقابل الضحك والقلة بالبكاء والكثرة على الترتيب، بأن قوبل الأول من الطرف الثاني وهو

البكاء، بالأول من الطرف الأول، وهو الضحك، والثاني من الطرف الثاني وهو الكثرة، بالثاني من الطرف الأول وهو القلة، وهذا التناسق من حيث العبارات والدلالات والمفردات والحروف والكلمات في غاية الترتيب والنسق، وهذا التقسيم الفريد في دلالة سياق العبارات أعطاها لوناً موسيقياً ومعنىً فريداً في غاية الحسن والبيان وهذا من الإعجاز الصوتي والبلاغي لسياق الآيات.

❑ مراعاة النظير:

النظير فعيل، مشتقة من النظر، أي: الشيء الذي ينظر إلى آخر ويقابله، فهذا نظير لهذا، أي: ينظر إليه، وهو مشعر بالتساوي، والتناظر التساوي، مثلاً تناظروا في الصف، أي: تساووا فيه، وقاموا على وتيرة واحدة.

وعرّفه البلاغيون: أنّه الجمع بين أمرين متناسبين أو أمور متناسبة بغير التضاد. فهو عكس الطباق. وفي مراعاة النظير قوامه الجمع بين الأمور المتناسبة، ولذا يسمى أيضاً بالتناسب والائتلاف والتوفيق والتلفيق والمؤاخاة بين المعاني.

ومن شواهده في القرآن العظيم: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ﴾ [الرحمن، آية: ٥] حيث جمع بين الشمس والقمر وهما متناسبان وكذلك: ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن، آية: ٢٢] و﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلۡيَاقُوتُ وَٱلۡمَرۡجَانُ﴾ [الرحمن، الآية: ٥٨] فاللؤلؤ والمرجان والياقوت أمور متناسبة لكونها معادن نفيسة مقترنة في الأذهان[1]. هذه الألفاظ متناسبة متناسقة أضفت للآية وللقارئ بعداً جمالياً

(١) ينظر: البلاغة الميسرة: ٦١٩؛ وعلم البديع: ١٣٠؛ وبحوث منهجية: ٣٦٨.

ونسقاً فريداً من حيث تشابهها وقرب معناها وجمال صوتها ونفيس معدنها كلّ ذلك حدده سياق الحال وسياق مجيئها متلاحمة متناغمة مرتبة كلّ لفظة تقابل الأخرى عدداً ودلالة ومعنىً وجمالاً، وهذا من روائع النسق القرآني.

وهناك من يلحق بمراعاة النظير بعض الموضوعات منها:

❑ إيهام التناسب:

وهو أن يكون اللفظ له معنيان أحدهما مراد والآخر غير مراد ويكون المعنى غير المراد هو الذي يتناسب مع الأمور التي ذكرت معه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ﴾ [الرحمن، آية: ٥-٦] فالنجم له معنيان **أحدهما**: غير مراد في الآية الكريمة وهو الكوكب الذي يتلاءم مع الشمس والقمر، **والثاني**: مراد وهو النبات الذي لا ساق له، وهو بهذا المعنى المراد يتناسب مع الشجر المذكور بعده، فالنجم بمعنى النبات لا يتناسب مع الشمس والقمر، ولكنه يتناسب معهما إذا كان بمعنى الكوكب، وهذا المعنى غير مراد في الآية الكريمة. وخلاصة القول: إنّ بين النجم في الآية وبين الشمس والقمر إيهام التناسب، أما النجم والشجر فبينهما مراعاة للنظير[1].

❑ تشابه الأطراف:

ومن مراعاة النظير ما يسميه بعض البلاغيين بتشابه الأطراف، وهو أن يختم الكلام بما يتناسب مع أوله في المعنى. كقوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [الأنعام، آية: ١٠٣] فقد

(١) ينظر: علم البديع: ١٣٢؛ والبلاغة الميسرة: ٦١٩؛ وبحوث منهجية: ٣٦٨.

ختمت الآية بما يناسب أولها؛ إذ (اللطيف) يلائم ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ (والخبير) يلاءم ﴿وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾؛ لأنّه من يدرك الشيء يكون خبيراً به، ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران، آية: ٢٨-٢٩] فإنّ النظرة العُجلى في الآية الثانية توهم أن تكون الفاصلة. (وهو بكل شيء عليم) ولكن بإمعان النظر وإطالة التأمل في سياق النظم الكريم يتضح أنّ المناسب هو ختم الآية بالقدرة، فاتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء من دون المؤمنين لا يكون إلاّ بزعم المتخذ أنّ الكافر يملك ويقدر على ما لا يقدر عليه المؤمن من النفع، لذا حذر الله من يفعل ذلك من المؤمنين وبين لهم أنّ إليه مصيرهم، وأنّه عليم بهم وبما يخفون ويبدون بل هو عليم بما في السماوات وما في الأرض، وهو وحده القادر على تحقيق النفع لهم، فينبغي على المؤمن أن يلجأ إلى قدرة الله تعالى وإن يستظل بها، وألا يوالي أعداءه الكافرين، إذ لا قدرة على نصره، وإنما القادر هو الله.. وبهذا يتضح أنّ ختام الآية بالقدرة ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو المناسب لسياق النظم الكريم[1]. فهذه المناسبة تحتاج إلى تأمّل وإطالة نظر، ولكن من خلال السياق التي وردت فيه ومن خلال تتابع الأحداث ومناسبة الأحداث وضحت الآية ومدادها، وهذا الترتيب في النظم جعل السياق يكشف المراد من المناسبة،

(١) ينظر: علم البديع: ١٣٤.

وهذه المناسبة وغيرها هي من كمال نسق وبلاغة هذا الكتاب العظيم.

❑ الإرصاد:

ويسمى أيضاً باسم: التسهيم، والتوشيح والتبيين والتوأم، وقد عرَّفه البلاغيون: أن يجعل قبل العجز من الفقرة أو البيت ما يدل على العجز إذا عرف الروي[1]. فهو قريب من مراعاة النظير الذي سبق بيانه، لأنّه لا يدل على العجز إلاّ ما كان بينه وبين العجز مناسبة، وكان شديد الصلة به، بل كثيراً ما يكون الدال على العجز هو نفس لفظ العجز. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت، آية:٤٠] وقوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس، آية: ١٩] فالإرصاد في الآيتين: (ليظلمهم) وقوله: (فاختلفوا) لأنَّهما دلاّ على أنّ مادة العجز من مادة (الظلم) و(الاختلاف) فعندما نقف على الفاصلة وهي النون من سياق الآيات الكريمة نعرف أن العجز (يظلمون) و(يختلفون).

وتكمن بلاغة الإرصاد في دلالته على آخر الكلام قبل الوصول إليه، فالكلام الجيد ما دلّت موارده على مصادره وكشف أوله عن آخره، حتى قال الخبراء بفن القول: البلاغة أن يكون أول كلامك دالاً على آخره، وآخره مرتبطاً بأوله.

---

(١) ينظر: بديع القرآن: ١٢٨؛ وتحرير التحبير: ٢٢٨؛ وعلم البديع: ١٣٧؛ والبلاغة الميسرة: ٦٢١.

فالسياق هو من أوصل المعنى البعيد إلى القريب وهذا النسق والترتيب هو من وضح بلاغة الأرصاد وأوجد المناسبة، وهذا يرجع كله للترتيب والنسق، وهذا من جمال الإعجاز وقوة البيان.

❑ الاستخدام:

وهو أن يذكر لفظ له معنيان، فيراد أحد المعنيين باللفظ ويعود عليه ضمير بالمعنى الآخر. أو يعود عليه ضميران كلّ واحد منهما بمعنى، ومنه قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ﴾ [البقرة، آية: ١٨٥] فالمراد بالشهر في قوله تعالى: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ﴾ (الهلال)، والمراد بالضمير في قوله: (فليصمه) الزمن المعلوم، أي: مدة الشهر فلفظ (الشهر) قد ذكر بمعنى وعاد إليه ضميره بمعنى آخر، هذا على اعتبار أن (شهد) بمعنى: رأى وأبصر.

هذا مما حدده سياق الضمير في الآية، وأما ترتيبها ونسقها فهو من خلال ترتيب الرؤية المترتبة على الصيام. وأما أن يتوسط اللفظ كلاماً يفيد أوله أحد معنييه ويفيد آخره المعنى الآخر كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد، آية: ٣٨-٣٩] فلفظ (كتاب) يحتمل أن يراد به الأجل المحتوم وأفاد آخره أنّ المراد به: الكتاب المكتوب.

وتكمن بلاغة هذا الفن فيما يحققه من الإيجاز، وهذا الأسلوب يوضح للقارئ بلاغة اللفظ وذلك في مجال التوسع بالمعاني؛ إذا لكل لفظة أكثر من معنىً يناسبها ويحددها نسقها وسياقها في الآية، وهذا من سعة هذا الكتاب، وجمال تأويلاته.

❑ **المشاكلة:**

المشاكلة في اللغة: المشابهة والموافقة، يقال شاكله أي: شابهه، **وفي اصطلاح أهل البلاغة:** ذكر المعنى بلفظ غيره أو بلفظ مضاد للفظ الغير أو مناسب له لوقوعه في صحبته تحقيقاً أو تقديراً. فمن أمثلة ذكر المعنى بلفظ غيره قوله تعالى: ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى، آية: ٤٠] فالسيئة الثانية المراد بها: المجازاة أو العقاب، وقد ذكر هذا المعنى المجازاة أو العقاب بلفظ السيئة لوقوعه في صحبة السيئة الأولى، وفي هذا الأسلوب ما يدعو إلى التنفير من السيئات؛ لأنّ الجزاء عليها سيكون شديداً ورادعاً سيكون سيئات مثلها لا جزاءً ولا عقاباً[1].

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴾ [الأنفال، آية: ٣٠] فقد سمى جزاء الله وعقابه لهم (مكراً) ليشاكل به مكر الكفار زيادة في ترويعهم ومبالغة في تعنيفهم وإيحاء بأن الله جزاءهم سيكون شديداً أليماً. وهذا مما حدده سياق النظم الذي جاءت به الآية والمكر زيادة في توضيح المعنى، وهذا النسق للآية جاء موافقاً لعقاب الله وجزاؤه عليهم، ولكن دلالة الألفاظ أعطت بعداً جماليّاً آخر لهذه المشاكلة، وهو جزاء مكرهم وعاقبة فعلهم يقابله ويشاكله نفس اللفظ ولكن بدلالة جديدة وهي (مكر الله) جزاء مكرهم.

ومنها أيضاً قوله تعالى: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾ [البقرة، آية: ١٣٨] فقوله: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِۖ ﴾ مصدر مؤكد لمضمون

---

(١) ينظر: علم البديع: ١٥٩؛ والبلاغة الاصطلاحية: ٣٦٥؛ وبحوث منهجية: ٣٧٠.

قوله: (آمنا بالله) والمعنى طهرنا الله بالإيمان تطهيراً، إذ الإيمان مطهر لنفوس المؤمنين.. والأصل فيه أنّ النصارى كانوا يغمسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه ماء المعمودية ويزعمون أن الولد يصير بذلك نصرانياً حقاً، فأمر الله المؤمنين أن يقولوا: صبغنا الله بالإيمان صبغته ولم نصبغ صبغتكم. فقد ذكر (التطهير) بلفظ الصبغة لوقوعه في صحبة صبغة النصارى تقديراً لا تحقيقاً؛ لأنّ الصبغ ليس مذكوراً في كلام النصارى بل فهم من السياق والأحوال؛ إذ الآية مترلة في سبب ذلك الفعل، وهو غمس أولادهم في ماء المعمودية.

❑ اللف والنشر:

هو ذكر متعدد على جهة التفصيل، أو الإجمال ثمّ ذكر ما لكل من آحاده من غير تعيين؛ ثقة بأنّ السامع يرد إلى كلّ ما يليق به. ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص، آية: ٧٣] فقد ذكر متعدد وهو (الليل والنهار) على جهة التفصيل حيث عطف النهار على الليل بواو العطف، وهذا يسمى (لفاً) ويسميه بعض البلاغيين (طياً) ثمّ ذلك بعد هذا الطي أو اللفظ: (النشر) وهو ﴿لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ وذكره كما ترى بدون تعيين ثقة بأنَّ السامع يدرك ما لكل ويرده إليه، فهو يدرك أنّ السكن لليل، وأنّ ابتغاء الفضل يكون نهاراً فإذا عيّن النشر وحدد كان من التقسيم الآتي بيانه لا من اللف والنشر[1].

أنواعه: يتضح من التعريف أنّ اللف والنشر نوعان:

الأول: أن يكون المتعدد مذكوراً على جهة التفصيل وهذا النوع ضربان.

---

(١) ينظر: بحوث منهجية: ٣٧٦؛ وعلم البديع: ١٧٥؛ والبلاغة الميسرة: ٦٢٦.

الضرب الأول: أن يكون النشر على ترتيب اللف، قال تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [القصص، آية: ٧٣] فقد جمع بين الليل والنهار بواو العطف، ثمّ أضيف إلى كلّ ما يليق به، فأضيف السكون إلى الليل؛ لأنّ فيه النوم والراحة، وابتغاء الرزق إلى النهار لما فيه من الكد والعمل.

هذا النسق المرتب والترتيب في العبارات؛ إذ رتب بين لفظتي الليل والنهار وهذا من جمال النسق وجيء السياق بإضافة السكون الذي هو دلالة على الليل ومجيء الراحة والسكن وهذه الألفاظ من بديع النظم.

الضرب الثاني: من اللف والنشر المفصل: هو ما يجيء على غير ترتيب اللف، ومن هذا الضرب ما يكون معكوس الترتيب. كما قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ...**﴾ [آل عمران، آية: ١٤٧] فقد جمعوا في دعائهم بين أمري الدنيا والآخرة وقدموا ما للآخرة: ﴿**رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا**﴾ وأخروا ما للدنيا ﴿**وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا**﴾ وهذا متعدد لم جاء النشر على غير ترتيب اللف حيث قدم ثواب الدنيا على ثواب الآخرة، ولعل السر في ذلك يرجع إلى أنّ المقام مقام جهاد وقتال والنفوس في هذا المقام متطلعة للنصر. وقد خصّ ثواب الآخرة بالحسن دون ثواب الدنيا إيذاناً بأنَّه المعتد به عند الله ﷻ[1].

---

(١) ينظر: علم البديع: ١٧٦؛ والبرهان، للزركشي: ٣/٢١٥؛ وأنوار الربيع: ١/٢٩٨.

الثاني: أن يكون المتعدد مذكوراً على جهة الإجمال: كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة، آية: ١١١] فالضمير في (قالوا) يرجع لأهل الكتاب من اليهود والنصارى والمعنى: وقالت اليهود: لن يدخل الجنة إلاّ من كان هوداً، وقالت النصارى: لن يدخل الجنة إلاّ من كان نصارى، فلفّ القولين وجمعهما في الضمير (قالوا): على جهة الإجمال ثمّ ذكر النشر ﴿هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ﴾ من دون تعيين ثقة بأنّ السامع يرد إلى كلّ قوله لما علم من التعادي بين الفريقين وتضليل كلّ واحد منهما لصاحبه، وهذا النوع من اللف والنشر لا يقتضي ترتيباً أو عدم ترتيب، لأنّ اللف مجمل لا يعلم ترتيبه حتى ننظر في ترتيب النشر في ضوئه.

وهذا من جمال النسق القرآني في هذه الآية؛ إذ رتبت الألفاظ ومجيئها ترتيباً رائعاً ودلَّت عليه من خلال نسقها (اليهود والنصارى) وهذا الترتيب الزمني والتاريخي جعل من اللف مجمل حتى جاء النشر مرتباً أضفى سياقاً جمالياً وروعة بيانية للنص المقدس.

وتأتي بلاغة هذا اللف والنشر في إنّ ذكر اللف مطويّاً فيه حكمه أو ما يتعلق به، أو يهيئ النفوس ويعدها لكي تتلقى ما يذكر بعد من النشر العائد إلى اللف فإذا ما ذكر النشر بعدئذٍ وقع في النفوس موقعه، وتمت الفائدة أحسن تمام وتحقق الغرض أبلغ تحقيق، لأنّ النشر جاء والنفوس إليه متطلعة وله مترقبة. هذا من بلاغة وجمال ونسق وروعة اللف والنشر، وهو جزء من إعجاز بلاغة القرآن الكريم.